الموضوع السادس عشر: من التفسير الوسيط
سورة الأحزاب من الآية ١: ٨

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

افتتحت سورة الأحزاب بهذا النداء لسيد الخلق - ﷺ - وبهذا الوصف الكريم، وهو الوصف بالنبوة، على سبيل التشريف والتعظيم.

قال صاحب الكشاف: جعل - سبحانه - نداءه بالنبي والرسول في قوله: ﴿ يا أيها النبي ﴾. ﴿ يا أيها الرسول ﴾ وترك نداءه باسمه، كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود: كرامة له وتشريفا، وتنويها بفضله.

فإن قلت: إن لم يوقع اسمه في النداء. فقد أوقعه في الإخبار، في قوله: ﴿ محمد رسول الله ﴾؟ قلت: ذلك لتعليم الناس بأنه رسول، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به [1].

والمراد بأمره بتقوى الله: المداومة على ذلك، والازدياد من هذه التقوى أي: واظب - أيها النبي الكريم - على تقوى الله، وعلى مراقبته، وعلى الخوف منه، واكثر من ذلك، فإن تقوى الله، على رأس الفضائل التي يحبها - سبحانه -. قال ابن كثير هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه - تعالى - إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٥١٨.

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وقد قال طَلْق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله [1].

وبعد الأمر بالتقوى ، جاء النهى عن طاعة غير المؤمنين ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ . أى : واظب ـ أيها النبى الكريم ـ على تقوى الله ، واجتنب طاعة الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى ، واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .

وفى إيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيحاء إلى ماكان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة ، لزحزحة النبى ـ ﷺ ـ عما هو عليه من حق ، ولصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل مكة طلبوا من النبى ـ ﷺ ـ أن يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فنزلت [2].

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ : تعليل الأمر والنهى ، أى : اتبع ما أمرناك به ، وما نهيناك عنه ، لأن الله ـ تعالى ـ عليم بكل شىء ، وحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

ثم أمره ـ سبحانه ـ باتباع ما يوحيه إليه فقال : ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك.. ﴾ أى : واظب على تقوى الله ، وابتعد عن طاعة أعدائك ، واتبع فى كل ما تأتى وتذر كل ما نوحيه إليك من عندنا اتباعا تاما . فالجملة الكريمة معطوفة على ماقبلها ، من قبيل عطف العام على الخاص .

وفى النص على أن الوحى إليه ـ ﷺ ـ وأن هذا الوحى من ربه الذى تولاه بالتربية والرعاية ، إشعار بوجوب الاتباع التام الذى لا يشوبه انحراف أو تردد .

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا الأمر تأكيدا قويا فقال : ﴿ إن الله كان بما تعملون

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٧٦ .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢١ ص ١٤٠ .

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

﴿ أى : إنه - تعالى - خبير ومحيط بحركات النفوس وبخفايا القلوب ، وكل تكليف ما أمرناه به ، أو نهيناه عنه ، فلا يخفى علينا أمره ، وسنجازيه يوم القيامة بما يستحقه . وقوله - سبحانه - ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى : وفوض أمرك إلى الله - عز وجل - وحده .

﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ أى : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بتدبير أمرك .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى الله ، واتباع ما يوحى إليه ، والتوكل عليه - تعالى - وحده . كما تضمنت نهيه - ﷺ - عن طاعة الكافرين والمنافقين . وباتباع هذه الأوامر والنواهى ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم .

ثم أبطل - سبحانه - بعض العادات التى كان متفشية فى المجتمع ، وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال - تعالى - :

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى
جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ
يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم
بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ نزلت فى رجل من قريش اسمه جميل بن معمر الفهرى ، كان حفاظا لما

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

يسمع ، وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هزم المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل ، رآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله - من شدة الهلع - فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . فقال له : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ماشعرت إلا أنهما فى رجلى . فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده .

وقيل سبب نزولها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا - ﷺ - له قلبان ، لأنه ربما كان فى شىء فنزع فى غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ [1] .

ويرى بعضهم : أن هذه الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله - تعالى - للمظاهر من امرأته . والمبنى ولد غيره ، تمهيدا لما بعده .

أى : كما أن الله - تعالى - لم يخلق للإنسان قلبين فى جوفه ، كذلك لم يجعل المرأة الواحدة زوجا للرجل وأما له فى وقت واحد ، وكذلك لم يجعل المرء دعيا لرجل وابنا له فى زمن واحد . وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : أى : ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل .. لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك .

ولأن البنوة أصالة فى النسب وعراقة فيه ، والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية لا غير . فإن قلت : أى فائدة فى ذكر الجوف ؟ قلت : الفائدة فيه كالفائدة فى قوله - تعالى - : ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] وذلك مايحصل للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه ، لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار [2] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١١٦ .

(٢) تفسير الكشاف - بتصرف وتلخيص - ج ٣ ص ٥٢١ .

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ إبطال لما كان سائدا من أن الرجل كان إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمى حرمت عليه.

يقال : ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريد أنها محرمة عليه كحرمة أمه.

وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، فى سورة المجادلة ، فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ إبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهى عادة التبنى .

والأدعياء : جمع دعى . وهو الولد الذى يدعى ابنا لغير أبيه وكان الرجل يتبنى ولد غيره ، ويجرى عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب بزوجة ابنه بالتبنى بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهما .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة ، مولى النبى ـ ﷺ ـ ، فقد كان ﷺ ـ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن محمد . فأراد الله ـ تعالى أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ ، كما قال فى أثناء السورة : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (١) .

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner